

دُومَع السَّاعِرَة

موجة الحب قد غمرت الشاعر .. و تيار الهوى قد جرفها فيما جرف ،
وهي التي كانت تجلس على الشاطئ ، مطمئنة آمنة .. تدفع بالناس
الى تخضبه الصاحب وتناى بنفسها عنه .

كانت الشاعرة لا تباشر الحب الا بالألفاظ والقوافي .. وكانت
تلهب نفوس العشاق بأشعارها الحالمة ، ولا تتأثر هي الا بقدر ما يتأثر
حانوتى في ماتم .

لم تدر من علمها نظم القصيد .. فقد كانت شاعرة بالفطرة ..
وكانت تقولها لأنها لا يمكن أن تقول سواه .. ولم تكن هي نفسها لتشعر
بسحره وقوته .. الا من انعكاسه على نفوس الناس .. ومن تأثيره في
مشاعرهم .. كانت تعلم الناس الهوى .. وهي اجهلهم به .. وكان
شعرها يفيض بالحب .. وهي أشد الناس خلوا منه .. كانت كسافي
الخير يمل الناس ولا يمل .. ويملا بالنشوة رؤوسهم وهو أبعد ما يكون
عن النشوة .. كانت ساقية الهوى في كؤوس الشعر .

وفى ذات مرة ذقت الشاعرة طعم الهوى .. وذائقته من يد ساحر
لم تقو على مقاومة سحره لحظة واحدة .. واستسلمت فى أين ورق ..
ووضعت شفتيها على حافة الكأس وأقسمت ألا تكف عن الارتشاف ..
لقد أحبت الشاعرة !

أولئك الذين سلقهم بلسانه .. إذ كان انسانا ذا شخصيتين .. فهو
يدنو فى حياته رفيقا هادئا .. جم الحياء .. أما على صفحات الصحف
التي يكتب بها فصول نقده .. فهو هجاء نقاد ، ملط اللسان لا يرق
ولا يلين .

ولم تكت قد مضت أيام على سر ذلك النقد اللاذع الذى كتبه
عن مسرحية (الخطايا) التي كانت تقوم فيها صاحبتها بدور البطولة ..
فصب عليها جام سخطة ، أو كما قال كل من قرأ النقد : مرط بها
الأرض .

وتنهض بدوره ومدّ يده مصانعا .. وقام الأستاذ شاكر بواجب
التعريف .

- الأستاذ ابراهيم الكاتب العبرى والناقد المعروف .. أعية هاتم
فكرى الممثلة القديرة والنجمة اللمعة . هذا تعريف صوري لا محل
له .. فلا أظن كلاهما الا يعرف الآخر غير معرفة .

وصمت برهة وهي تفحصه بعينها ثم أردفت قائلة :

- الأستاذ ابراهيم : تشرفنا يا أقدم .. طبعاً أعرفه .. ومن الذى
لا يعرفه ؟

وأحسن ابراهيم بعض الارتباك وتتمم قائلاً :

- العفو يا اقدم .

وصحت برهة وهي تفضحه بعينها ثم أردفت قائلة :

- من الذي لا يعرفه ؟ ومن الذي لم يسلم من لسانه ؟ وهو أشبه
بالتقوآت دابر يطمح في خلق الله .

وضحك ابراهيم وقال وهو يحني رأسه في رقة وأدب :

- العفو يا اقدم .

وتدخل شاكر قائلاً :

- تفضلني يا أمينة هانم .

ومد يده فحضر كرسيا .. وجلس الثلاثة حول المائدة .. وصفق
شاكر بيديه ينادي الساقى . وقالت أمينة موجهة القول الى ابراهيم .

- أريد أن أعرف يا أستاذ .. هل بيننا ثأر قديم وعدوة ميتة ؟

ونظر اليها ابراهيم قاحصا .. فوجد بها نظارة عجيبة .. يتدر أن
توجد في الممثلات ، وصمت برهة وأجابها ضاحكا :

- أتقصدين مثلا أن أبي قد قتل أباك ؟

- سل نفسك .. ما سر تلك الحملات الشعواء التي تشنها

على ؟

- إن واجبي النقد .. وأنا أحاول أن أقول الحق قدر ما أستطيع

- لا .. لا يا أستاذ .. أنت هذام .. هذا ليس نقدا .. هذا ضرب

بالباط .. هل تدري .. أنني فكرت في أن أرورك لأطلب منك الرمة
والرحمة ؟

- يا القدم العفو .. هذا كبير .. هذا تقدير لا أستحقه . فلا أضل
لك الكلمات التي أكتبها لها تلك القيمة .

- أشد ما يؤسف له أنها كذلك .. هل لتري أية خسارة سينتها
لي حملاتك تلك ؟ أربعة عقود مع أربع شركات سينمائية مختلفة قد
أضعتها من بدى .. ألم تقل عني في نقدك لفيلم (الهاربة) أنني أفلست
الفيلم ؟ .. ان أسوأ ما في الأمر أن لكناجك قيمة .

- هذا شيء لو كان قد حدث حقًا فاني عليه جد أسف . أنا
لم أقصد قط أن أسيء اليك .. ولكنني قصدت بتغذي اصلاحك .. فاني
أرى فيك معدنا طيبا .. لديك ما يجعل منك ممثلة عالمية .. لديك
مواهب كاتبة لم تستغل قط .. ان عيبك - كما قلت من قبل - هو
أنك لاتحيين في دورك . انك تؤديه بطريقة سطحية ، لا حرارة فيها
ولا عمق ولا ايمان .. يجب أن تكوني أنت نفسك تلك المخلوقة التي
تقومين بدورك .

- اني أحاول ذلك فعلا .

- المحاولة شيء ، والنجاح شيء آخر ، فالنجاح في التمثيل ليس
مجرد الية والمحاولة ، ولكنه موهبة وجهد .. ان لديك الموهبة ولكنك
لاتبذلين الجهد . فالجهد هو كما قلت لك أن نحى في دورك ، فلا
يبدو قط أنك تبذلين جهدا .. ان أقصى الجهد هو الذي لايسر جهدا .

- وماذا يمكنك أن تفعل أكثر من ذلك ؟

- عيشي في الدور الذي تؤديه .. انسى نفسك .. لا لدى
فكرة لأنك ، لو حاولت تنفيذها ، في أنها سترفعك الى القمة ، وتجعل
منك شيئا آخر .

- توى بيها لى ؟

- لا .. بل سأهبها لك مجاناً .. لقد قلت لك انه يجب أن
تتلاشى شخصيتك فى دورك .. ويبدو لى أنك لست تطيعين أن تفعل
ذلك بمجرد معارلتك أن تحبى فى دورك فى فترات التمثيل على خشبة
المسرح .. أو أمام الكاميرا .. فلم لا تجربى أن تحبى دورك فى حياتك
كلها .. سواء على المسرح أم فى الحقيقة ؟ .. اليس دورك فلا تخلعه
بمجرد مغادرتك المسرح .. بل ابقى كما أنت .. وأحبى دورك فى
الطريق .. وفى الدار .. وفى كل مكان .. ولا تخلعه حتى تنهى منه
تماماً .

- ولكن هذا كلام عيالى يسهل قوله ويستحيل تنفيذه .. هناك
أدوار لا أستطيع أن أقمصها خارج المسرح .. أدوار أكرهها لأنها قد
لا تلائم طبيعتى .

- لا تقلبى قط أدواراً لا تحبينها ، أو لا تلائم طبيعتك .. لا تقلبى
سوى الأدوار التى توقفين الى الحياة فيها ، وتحسين بمتعة خلال القيام
بها .

- لا تدعى نخلق فى سماء الأوهام فلو فعلت ما تشير به ولم
أقبل إلا الأدوار التى أرحب فيها ما استطعت أن أكون ما أنا عليه ..
- بل لأضحك خيراً مائة مرة مما أنت عليه .. لم لا تجربى ؟
وضحكك أمانة ، ولندخل شاكر بعد طول انصات ، وقال لها
ضاحكاً :

- لا تقلبى اليه ، فلن تأخذى منه غير هذه الأوهام .. هو
لا يحسن سوى الكتابة .. المهم هو أن تعطيه الآن انذاراً نهائياً لكى
لا يعود الحملة عليك . ما رأيك ؟

وهو ابراهيم رأسه وهو ينظر اليها نظرات عميقة وقال :
- لو لميتها قبل الآن لما استطعت أن أحمل عليها قط .

مضى على اللقاء عامان .. ونحن الآن في حديقة إحدى الفيلات
بمصر الجديدة وقد اضطجع ابراهيم على أحد المقاعد الطويلة ، وبدأ
شارد الفكر مغمض العينين . وقد أخذ يستعرض في ذهنه ذلك اللقاء ،
وأخذ يذكر كل ما جرى بينها وبينه .. من كان يظن هذا ؟ من كان
يظن أنه أول من سيكتوي بيران تلك الفكرة العريضة التي أوحى بها
ليها وقتذاك ؟ تحيا في دورها ؟ لافى المسرح فقط بل في الطريق وفي
الدار وفي كل مكان ؟ وتفحص الشخصية التي تقوم بتميلها .. فلا
تخلعها حتى تنتهي تماما من أداء الدور وتنفض يدها منه ؟

أي جنون هذا الذي دفعه الى أن يفضي اليها بذلك القول ؟ فض
قوة قبل أن ينطق بتلك السخافة التي تشغل اليوم كاهله وتذيقه الأمرين ..
ولكنه معذور ، فما كان يتخيل وقتذاك أن العبيحة ستقلب بمثل هذه
الطريقة ، وما كان يخطر له على بال قط .. أن ما حدث بينهما شيء
يمكن حدوثه .

لقد التقى بها بعد اللقاء الأول مرة ثانية وثالثة ورابعة .. وفي كل
مرة يلقاها يرى فيها شيئا جديدا . أجل لقد تكشفت له عن مخلوقة
عجيبة .. ليس بها من ذلك النوع الذي كان يظنه منها أي شيء أو
صلة .. مخلوقة مرهقة الحس ، طيبة القلب ، نقية السريرة ، شديدة
الذكاء ، حلوة المعشر ، يعطي جمال باطنها على جمال ظاهرها .

ومرت به الأيام وهو يحس أن قيذا يشد وثاقه اليها وأنه قد باتت
ضرورة من ضرورات حياته ، لا يستطيع عنها حولا .. وأخذت هي
الأخرى تساب في تيار الهوى .. وبدأت تجد فيه نوعا من الآلهة ،
وتجد في أحاديثه ونصائحه حكما سماوية يجب أن ترضخ لها ، وودت
لو استطاعت أن تغد نصيحته الذهبية التي كان لا يفتأ يكررها لها ..
(أحس في دورك .. على المسرح وفي خارج المسرح .. ولا تخطيه
حتى تنتهي منه .. انسى نفسك وكوني دائما المخلوقة التي يود المؤلف
إبرازها) .

وزادت رابطة الحب بينهما ثوقا على مر الأيام ، ولم يكن يخطر
بباله في يوم من الأيام قبل أن يلقاها أنه يمكن أن يتزوج ممثلة .. فقد
كان يعتقد أن الممثلة لا يمكن أن تصلح زوجة وريثة دار .

ولكنها بددت من رأسه تلك الأفكار .. فقد وجد فيها خير من
تصلح لأن تكون زوجته وأم بنيه .. وجد فيها نفسا قوية أبية حنونة ،
وجد فيها بعدا عن الفحافة .. وجد فيها عمقا وحساسية .. فأقدم على
الزواج منها .. وهكذا أضحى الناقد زوجا .. وأحسست هي أن الله وهبها
من نعمائه ما أعجزها عن الشكر .

وبدأ في ذلك الوقت عرض المسرحية الكبرى (الظلال المتدلية)
التي تقوم هي فيها بدور البطولة ، وسبق العرض عروض عديدة ، بذلت
فيها جهدا جبارا فقد كانت ترجو أن تبلغ الكمال ، حتى إذا ما لُفّق
بها في نقله ، لُفّق بها غير مرغى ، كانت تريد الإجابة ، حتى إذا
استدحها كان أمينا في نقله . كانت تريد أن تثبت له أنها نحيا في دورها
حقا وأن نفسها تلاشت في الشخصية الجديدة التي تقمصتها .. وبدأ
هو يحس مبلغ ما في نصيحته من السخف والحنون عندما وجد أن

المخلوقة التي تدله في حبها قد أخذت تمسك من يده ، المخلوقة
العفيفة الذكية الهاذنة المترفة الحسنة .. وأنه قد استبدل بها مخلوقة
أخرى تافهة رجاء مخلوقة تكره الدار وتغض الأهل .

وأسقط في يده ولم يدرك كيف يقنعها أن تنسى نصيبته ، وأن
من الجنون أن تستمر مرتدية تلك الشخصية التي تقوم بدورها على
المسرح في حياتها الخاصة ، وأنه يجب أن تنسى كل شيء عن دورها
بمجرد أن تترك المسرح ، والأصحت الحياة بحوارها جميعا لا يطاق .
وبدأ يذوق الأمرين في الاعتذار عن هفواتها وسخافاتنا وحمقاتنا مع
المعارف والأصدقاء ، ولم يكن يعزبه شيء إلا أن المسألة ليست إلا
مسألة طارئة وأن دوامها لن يزيد على عرض الرواية ، وحمد الله على
أن دورها على ما سببه له من منافع خير بكثير مما كان يمكن أن
يكون .

ونجحت هي في دورها الجديد أيضا نجاح وبلغت في تمثيلها
المدروءة ، وقال عنها النقاد أنها امرأة عبقرية ، وأن المسرح لم ير مثلها
منذ عدة أجيال ، وانتهى أخيرا عرض الرواية ، وأحسن هو بعبد بزاح
عن كاهله ، وتنفس الصعداء عندما شعر أخيرا أن المخلوقة المثالية التي
أحبها قد عادت إليه وأنها قد خلعت ثوب التافهة الذي ترتديه .

ومرت عدة أسابيع وهو ينعم بحياة هادئة .. حتى كان ذات يوم
وقد عاد إلى داره ، فسمع صراخا شديدا ، وأسرع إلى مصدر الصراخ
فوجدتها تقف أمام المرأة وقد تمزق ثوبها من فوق كتفها وتهدل شعرها
على وجهها وبدت في عينيها نظرات فرح مجنونة ، ووقف أمام الباب
يلهث ويسألها عما بها ، وفجأة انطلقت منها ضحكة عالية وقالت له :

- رأيت ؟

- فم ؟

- في هذا الدور الجديد .

ثم مدت يدها اليه بمجموعة أوراق مخطوطة .. وأمسك هو بالرواية وأحس أن رأسه يدور به ، واتخذ مجلسه فوق أحد المقاعد ، ووقفت هي وراءه وقد أحاطته بذراعيها ، ومن الصفحة الأولى أدرك الرداء الذي تنوى زوجته ارتدائه ، أو على الأصح تبين أي زوجه جديدة يوشك أن يعيش معها .. لقد كان دور البطلة في الرواية الجديدة (عاهرة مجنونة) ياساتر يارب .. عاهرة ومجنونة ؟

- لا .. لا .. الا هذا .

ولم يعد في قوس الصبر مزع ، ونظرت اليه بعد أن ألقى الرواية وقالت له :

- طبعاً .. مستقول كمادلك دائماً ، أنها بايخة .

- لا .. لا .. ان عندي فكرة جديدة أود أن أعرضها عليك .

- أريد أولاً أن أعرف رأيك في الرواية ؟

- لا أستطيع أن أبدى رأيي فيها قبل أن أتم قراءتها ، ولكني سأعرض عليك فكرة هائلة .

وسادت فترة صمت طويلة بدا خلالها كأنه قد استغرق في تفكير عميق ثم قال لها :

- ما رأيك في أن أكتب مسرحية خصصتها لك ؟

- أنت ؟ ولكنك لم تكتب مسرحيات من قبل .

- وهل هذا معناه أنني لا أعرف الكتابة ؟ سأكتب لك الفور
الذي خلقت من أجلك ، وعلقت من أجله .

ومرت الأيام بعد ذلك ، وهو لا يفعل شيئا سوى كتابة المسرحية
الجديدة وقد سجن نفسه في حجرته لا يزور أحدا ولا يكلم أحدا ..
وانتهى أخيرا من كتابة المسرحية ورسم بطلتها كما يشتهي .. زهرة
ناضرة .. يفوح منها الشذى ، ويتصوع منها العبير ، امرأة مثالية ..
سديدة الرأي ، صافية الذهن ، عاقلة مدبرة ، وفيه مخلصه .. ربة دار
وأم أطفال ، تعين زوجها على الحياة ولا تعيها عليه .. هادئة طيبة ،
جميلة للأسى ، صورة على المكاره .. لقد رسم بها ذلك الشيء الذي
عشقه في صاحبه وسلط عليها من أضواء قلبه وأوهام ذهنه ما وضعها
مصائب الملائكة .

وأعطاهم الرواية لكي يقرأها ويبدى له رأيها فيها ، وجلس في
الحديقة ينظر في قفث وحشية ، كيف منفع الرواية من نفسها .

ومر الوقت بطيئا مملا حتى أحس بوقع أقدامها على رمال الحديقة
ثم أحس يديها تحيطانه من عنقه وسألها هاسا :

- كيف وجدتنيها ؟

فأجابت :

- مذهلة .

ثم أقبلت وحيها فأبصر في عينها دعة تفرق وسألها في
دهشة :

- ما بالك ؟

فقلت :

- لقد رسمتني كما تريد .. وماأكون كما رسمتني .

ثم مدت يديها اليه بالرواية وقالت :

- عذرها لا حاجة بي اليها .. اني أستطيع أن أحيأ في دوري
الذي رسمته بنون حاجة اليها .. اني سأحيأ في دوري هنا في الفار
فقط .. سأنجب أطفالا في الحقيقة لا على المسرح .. هذا هو دوري
الأخير .
